هدية
المؤلف لمكتبة
الجامعة الاميركية
بيروت

٢

النفائس

سلسلة أدبية تبحث في الشعر والنثر
تهم الطالب والباحث والمدرس

الوصف في شعر امرئ القيس

بقلم

طه محمد القاضي

(ليسانس في الادب العربي)

بيروت — نيسان ١٩٥٥

الطبعة الاولى

المصادر والمراجع

امرؤ القيس : الروائع ٧ فؤاد افرام البستاني – الطبعة الثانية .

الشعر الجاهلي : (الروائع ٢ : ٤٢) فؤاد افرام البستاني.

ابو زيد القرشي : جمهرة اشعار العرب (طبعة الخشاب مصر ١٣٣٠ (١٩١١) .

ابن عبد ربه : العقد الفريد ، مصر ١٣٠٢ (١٨٨٤) .

ابن قتيبة : الشعر والشعراء (طبعة de Cocie) ليدن ١٩٠٤ .

ابو الفرج الاصبهاني : كتاب الاغاني ، بولاق ١٨٦٨ في اجزاء عديدة خصوصاً : ٢ و ٨ .

ابن رشيق : العمدة ، مصر ، ١٩٠٧ .

البطليوسي : شرح ديوان امرىء القيس ، مصر ، ١٢٨٢ (١٨٦٥) .

الزوزني : شرح المعلقات (طبعة حجرية بخط ابي صعب ،

دير القمر ، ١٨٥٣ .
التبريزي : شرح القصائد العشر (طبعة Lyall) كلكتا ، ١٨٩٤ .
وليم ابن الورد : الشعراء الستة الجاهليون ، لندن ، ١٨٧٠ .
سليمان البستاني : مقدمة الألياذة ، مصر ، ١٩٠٤ .
الأب لويس شيخو : شعراء النصرانية بيروت ١٨٩٠ .
« « « : مزدكية امرىء القيس المشرق (٨ (١٩٠٥) ص ٩٩٨ ...)
البستاني : دائرة المعارف ، بيروت ، ١٨٨٠ .
عبد العظيم علي قناوي : الوصف في الشعر العربي ، الجزء الأول : مصر ، ١٣٦٨ ، (١٩٤٩) .

امرؤ القيس

اجداده

ملوك كندة ووائل

يعود نسب شاعرنا الى كندة . وهي قبيلة يمنيـة الاصل ، كان اهل امرىء القيس مملكين عليها من قبل تبع ملك حمير .

وحدث أن اشتدّ الخلاف بين البكريين في نجد ، وفسد امر حكامهم ؛ فاجتمع شيوخهم وحكماؤهم وقالوا : « ان سفهاءنا قد غلبوا علينا حتى اكل القوي الضعيف ، ولا نستطيع دفع ذلك . فنرى ان نملك علينا ملكا نعطيه الشاء والبعير ، فيأخذ للضعيف من القوي ، ويرد على المظلوم من الظالم ولا يمكن ان يكون من بعض قبائلنا فيأباه الأخرون . ولكنا نأتي تُبّعاً فنملكه علينا . » فقصدوا ملك اليمن ، فملك عليهم حجراً امير كندة المعروف « بآكل المرار[1] »

---

(١) كان حجر هذا جد امرىء القيس . واصل تلقيبه بآكل المرار فيه آراء متضاربة اوجهها انه سمي بذلك لكشر كان به — لان المرار ، وهو نبات شديد المرارة ، يقلص مشافر الابل . او سمي كذلك لانه ، لما بلغه سبي امرأته اخذ يأكل المرار من الغيظ ، وهو يدري . (راجع الاغاني : ٨ : ٦٣)

فانتقل باهله الى ديار بكر ، في مقاطعة نجد ، وترك اليمن وهذا الحادث ينبهنا الى ان امرء القيس ، وإن عدّ في شعراء اليمن ، فليس له من اليمنيه الا النسب . اما النشأة الشاعرية والطريقة فهي نزارية محضة .

وسار حجر في ملكه على طريقة سوية ، فاصلح فساد البكريين واعاد اليهم ما كان انتزعه اللخميون من ارضهم وساسهم بحزم وادارة الى ان مات فأسفوا عليه .

ثم ملك ابنه عمرو المعروف « بالمقصور » . ثم الحرث بن عمرو ، جد امرىء القيس . وكانت امه من بني شيبان وهم ينزلون الحيرة . فنزلها وحكم فيها ، على عهد قباذ ملك الفرس .

وحدث ان عاد الخلاف بين قبائل نزار فعم الفساد ، حتى اتى شرفاؤهم الحرث فقالوا : « انا في دينك ، ونحن نخاف ان نتنافى فيما يحدث بيننا . فوجه معنا بنيك ينزلون فينا ، فيكفون بعضنا عن بعض . » وكان للحرث خمسة بنين : حجر والد امرىء القيس ، ومعدي كرب الملقب « بالغلفاء » لانه كان يغلف رأسه بالطيب ، وشرحبيل ، وسلمة ، وعبد الله . ففرّقهم ابوهم في القبائل . فملك حجراً على بني اسد وغطفان . وملك معدي كرب على بني تغلب وطوائف بني دارم وبني رقية .

وملك شرحبيل على بكر بن وائـل وحنظلة . وملك سلمة على بني قيس . وملك عبد الله على بني عبد القيس . وبقي الحرث زمناً في نعيم ، حتى طلبه انو شروان ، وكان لا يزال حاقداً عليه لأنه كان قد مالأ — المزدكية على عهد والده قباذ . فبلغ ذلك الحرث ، وكان يقيم في الانبار ، فخرج هارباً في هجائنه وماله وولده . وتبعه الملك المنذر ، عامـل كسرى ، بكوكبة من خيل تغلب وبهراء واياد . فلحق الحرث بارض كلب ، فنجا بعد ان انتهب ماله . وقبض بنو تغلب على ثمانية واربعين من بني آكل المرار فقتلوهم بجفر الاملاك . في ديار بني مرينا العباديين ، بين دير هند والكوفة وفيهم يقول امرؤ القيس .

الا يا عينِ بكي لي شنينا وبكي لي الملوك الذاهبينا

وظل الحرث في بني كلب حتى قتله هؤلاء على قولهم[1] .

---

(١) اما علماء كندة فيزعمون ان لم يقتله بنو كلب ، بل انه خرج يوماً الى الصيد فتبع تيساً من الظباء فأعجزه . فحلف الا يأكل اولا الا من كبده . فطلبته الخيل ثلاثاً ، فاتى به بعد الثلاث وقد هلك الحرث جوعاً . فشوي له من الكبد وتناول فلذة فأكلها حارة ، فـمات . اطلب ابن قتيبة : كتاب الشعر والشعراء ، ص ٣٧ ، والاغاني ٨ : ٦٤ .

وبقي حُجر مدة ملك بني اسد يأخذ منهم اتاوة في كل سنة الى ان ارسل سنة جابيه في طلب ذلك . فمنعوه وضربوه ضرباً شديداً . وكان حجر بتهامة ، فسار اليهم بجند من ربيعة وكنانة وقيس . فأتاهم واخذ سرواتهم ، فجعل يضربهم بالعصا حتى الموت . فسمّوا « عبيد العصا » . واباح اموالهم وصيرهم الى تهامة فحبس فيها اشرافهم . ثم رق لهم ، فاستكانوا . حتى وجدوا منه غفلة فقتلوه .

وخلف حجر عدة اولادا اكبرهم نافع ، واصغرهم امرؤ القيس .

امرؤ القيس

٥٠٠ ؟ – ٥٤٠ ؟ (١)

حياته

قبل مقتل ابيه

اسمه

امـــرؤ القيس بن حجر ، بن الحرث الملك ، بن عمرو المقصور ، بن حجر آكل المرار ، بن معاوية ، بن ثور المعروف بكندة . ولد في نجد . وامه فاطمة بنت ربيعه ، اخت كليب

---

(١) ذكر الاستاذ افرام البستاني في العدد (٧) الطبعة الاولى من الروائع ان السنة ٥٦٥ تاريخاً لوفـــاة امرىء القيس جاريا اثر الاب شيخو (شعراء النصرانية ، ص ٧) ولكنه اردف ذلك الرقم بعلامة استفهام (؟) ثم عاد فراجع ما يذكره مؤرخوا الروم عن شاعرنا ، وقارن بين الحوادث التي جرت على عهده في البلاد العربية ، وما كان من علاقات بين امرائها وملوك الروم والفرس فراى ان نأخـــذ برأي دي برسفال الجاعل ولادة شاعرنا حول السنة ٥٠٠ ووفاته حول السنة ٥٤٠ محتفظا بعلامة الاستفهام دلالة على عدم اطمئنانه التام للتاريخ المذكور .

والمهلهل التغلبيين عـلى قول ابن قتيبة[1] وصاحب الاغاني . وللرواة بعض الاختلاف في اسمـه فقد قال الوزير ابو القاسم المغربي ان اسمه جندح « وامرؤ القيس » لقب غلب عليه لمـا اصابه من تضعضع الدهر ، ومعناه « رجل الشدة » ؛ وذكره مؤرخو الروم باسم « قيس » . وهو امرٌ ليس تحته اهميـة ، لبعد عصر الشاعر عنا ، وامكان تأويل هـذا الاختلاف بأن الوزير المغربي اراد ان يشرح معنى « امرئ القيس »[2] ، وبأن مؤرخي الروم لم يحفظوا الا المقطع الاخير من اسمه . اما ان

---

(١) ابن قتيبة : الشعر والشعراء، ص ٢٤ الاغاني - ٨ : ٦٣ - وقد شك بعض المستشرقين وادباء العصر في الامر ، مستندين الى ان الشاعر لا يذكر كليباً ولا المهلهل ، بل يذكر خالا له يدعوه ابن كبشة فقالوا : قد تكون فاطمة المذكورة امرأة ابيه لا امه . وقد تكون هي التي شبب بها في قوله : « افاطم مهلا بعد هذا التدلل ... » اما ابن قتيبة وصاحب الاغاني فيؤكدان اولا ان ام الشاعر هي فاطمة بنت ربيعة . وثانيا ان فاطمة المذكورة في شعره « هي بنت العبيد بن ثعلبة بن عوف بن كنانة بن عوف بن عذرة وهي التي يقول فيها ايضا : « لا وابيك ابنة العامري . » .. ابن قتيبة : ٤٨ ، والاغاني ٨ : ٢٦٠

(٢) وقد اشتهر غير صاحبنا من الشعراء باسم امرئ القيس منهم : امرؤ القيس بن همام الكلبي ، وامرؤ القيس بن منذر الكندي ، وامرؤ القيس بن عابس الكندي ايضا والى هذا ينسب الرواة ابياتا نجدها في ديوانه

نستنتج من اختلاف الرواة في اسم الرجل سبيلا الى الشك (وان كان شكا يكتنفه الترجيح) في حقيقة وجوده [1]، فهي السذاجة بعينها .

ولوعه بالشعر – ملذاته

نشأ امرؤ القيس في الترف واللهو ، شأن اولاد الملوك ، فلم ينقصه امرؤ من ملذّات الحياة ، وكان جميل الطلعة وسيما [2] مفطوراً على الشعر ، فنظمه فتىً ، وتوسع في انواعه من اوصاف الملاهي والالعاب وايام السرور والمغامرات الغرامية بكلام كان يتجاوز احياناً الى ذكر امور انف منها ابوه فحرمها عليه ونهاه عن قول مثل هذا الشعر ، فلم ينته . فغضب منه وطرده

فكان امرؤ القيس يتنقل في احياء العرب ، ومعه بعض الاصحاب من شبان طيء وكلب وبكر . فاذا صادفوا غديراً او روضة ، او موضع صيد ، نزلوا فيه ، فاصطادوا ، واكلوا ، وشربوا الخمر ، واقاموا ينشدون الشعر وتغني لهم القيان حتى ينضب ماء الغدير ، او ينفد الصيد . فيحملهم امرؤ القيس الى غيره [3] . وفي اثناء ملاهيهم هذه قال شاعرنا المعلقة على الارجح

---

(١) الدكتور طه حسين : في الادب الجاهلي ، ص ٢١١

(٢) ابن قتيبة الشعر والشعراء ، ص ٤٧

(٣) الاغاني ٨ : ٦٨

وصول الخبر .

كان امرؤ القيس ببدمون من ارض الشام ، وقيـــل من ارض اليمن[1] ، يشرب الخمر ويلعب مع نديم له بالنرد ، اذ اتاه نعي ابيه . وكان ذلك ، على رأي دي برسفال[2] حول السنة ٥٢٥ ، وعمر امرؤ القيس اذ ذاك نحو ٢٥ سنة . وهو يوافق رأي الهيثم « ان امرءَ القيس لما قتل ابوه كان غلاماً قد ترعرع[3] »

وشرح ابن السكيت كيفية ذلك فقال : « ان حُجراً ، لمـــا طعنه بعض بني اسد ولم يجهز عليه ، اوصى ، ودفع كتابه الى رجل من بني عجل يقال له « عامر الاعور » وقال له : « انطلق الى ابني نافع ، فان بكى مالهُ عنه ، واستقرء اولادي واحداً حتى تأتي امرء القيس ، فان لم يجزع ، فادفع اليه سلاحي وخيلي ووصيتي ، وقد كان بيّن في وصيته من قتله ، وكيف كان خبره . فانطلق الرجل الى نافع ، فاخذ التراب فوضعه على

(١) الاغاني ٨ : ٦٨

(٢) de Perceval , o p. cit . II , 295 (الروائع ٧ الطبعة الثانية) .

(٣) الاغاني ٨ : ٦٨

رأسه . فتركه يبكي ، واستقراهم واحداً واحداً ، فكلهم فعل ذلك . حتى أتى امرء القيس فوجده في الحالة التي ذكرناها فقال له : « قتل حجر ! » فلم يلتفت اليه . اما النديم فامسك عن اللعب . فقال امرؤ القيس : « اضرب ! » فضرب حتى اذا فرغ قال : « ما كنت لافسد عليك دستك » [1] ثم اقبل على الرسول فسأله عن امر ابيه بالتفصيل فاخبره . فقال « ضيعني ابي صغيراً وحملني دمه كبيراً ! لا صحو اليوم ولا سكر غداً ! اليوم خمر وغداً امر . » فذهب مثلاً .

ثم شرب سبعاً . فلما صحا ، آلى الا يأكل لحماً ولا يشرب خمراً ، ولا يدهن بدهن ، ولا يلهو بلهو ، ولا يغسل رأسه حتى يدرك رأس ابيه فيقتل من بني أسد مائة ، ويجز نواصي مائة . وقال :

ارقت ولم يأرق لما بي ، نافعُ

وهاج لي الشوق والهموم الروادعُ

الاستعداد لطلب الثأر—وفود بني أسد

ثم شرع شاعرنا يعد العدد ويجهز الأسلحة لمحاربة بني أسد

---

(١) الاغاني ٨ : ٦٧ ٦٨

فبلغهم ذلك ، فاوفدوا اليه رجالاً من كبارهم فيهم المهاجر بن خداش ، وقبيعة بن نعيم ،وكان هذا ذابصيرة بمواقع الامور . فكان بينهم وبين امرىء القيس مشهد مؤثر نقـله صاحب الأغاني عن حديث يرقى الى ابي عبيدة عن سيبويه عن الخليل .

فلما علم امرؤ القيس بمكانهم ، امر بانزالهم وتقدم باكرامهم والافضال عليهم، واحتجب عنهم ثلاثاً فسألوا عنه من حضرهم من رجال كندة ، فقالوا : «هو في شغل باخراج ما في خزائن ابيه حجر من السلاح والعدّة » .

فقالوا : « اللهم غفراً! انما قدمنا في امر نتناسى به ذكر ما سلف ، ونستدرك به ما فرط فليبلغ ذلك عنا ». فخرج اليهم في قباء ، وخف ، وعمامـة سوداء ، وكانت العرب لا تعتم بالسواد الا في التراث . فلما نظروا اليه ، قاموا له، وبدر اليه قبيعة :

« انك في المحل والقدر والمعرفة بتصرف الدهر وما تحدثه ايامه ، وتنتقل به احواله ، بحيث لا تحتاج الى تبصير واعظ ، ولا تذكرة مجرب ، ولك من سؤدد منصبك ،وشرف اعراقك وكرم اصلك في العرب محتمل يحتمل ما حمل عليه من اقالة العثرة ، ورجوع عن هفوة . ولا تتجاوز الهمم الى غـاية الا

رجعت اليك ، فوجدت عندك من فضيلة الرأي ، وبصيرة الفهم وكرم الصفح في الذي كان من الخطب الجليل الذي عمت رزيته نزاراً واليمن ، ولم تخصص كندة بذلك دوننا ... كان لحجر التاج والعمة فوق الجبين الكريم ، واخاء الحمد ، وطيب الشيم ، ولو كان يفدى هالكُ بالانفس الباقية بعده ، لما بخلت كرائمنا على مثله ببذل ذلك ، ولفديناه منه

ولكن مضى به سبيل لا يرجع اولاه على اخراه ولا يلحق اقصاه ادناه . فأحمدُ الحالات في ذلك ان تعرف الواجب عليك في احدى خلال : اما ان اخترت من بني أسد اشرف بيتاً ، واعلاها في بناء المكرمات صوتاً ، فقدناه اليك بلسعة ، يذهب مع شفرات حسامك ... او فداءٌ بما يروح من بني أسد من نعيمها ، فهي الوف تجاوز الحسبة ... واما ان توادعنا حتى تضع الحوامل ، فنسدل ، ونعقد الخمر فوق الرايات . »

فبكى امرؤ القيس ساعة ، ثم رفع رأسه ، فقال :

« لقد علمت العرب ان لا كفء لحجر في دم ، واني لن اعتاض به جملاً او ناقة ، فاكتسب بذلك سبة الأبد وفت العضد واما النظرة ، فقد اوجبتها الاجنة في بطون امهاتها ، ولن اكون لعطبها سبباً . وستعرفون طلائع كندة ، من بعد ذلك ، تحمل القلوب

حنقاً ، وفوق الأسنة علقاً .

« اذ جالت الخيــل في مازق

تدافع فيــه المنايا النفوسا ،

« أتقيمون ام تنصرفون ؟ »

قالوا : « بل ننصرف باسوإ الاختيــار ، وابلى الاجرار ، لمكروه واذيــة ، وحرب وبليّه » . ثم نهضوا عنه ، وقبيعة يقول متمثلاً :

« لعلك ان تستوخم الموت ، ان غدت

كتائبنا في مازق الموت ، تمطرُ ! »

فقال امرؤ القيس : « لا والله استوخمه ! فرويداً لينكشف لك دجاها عن فرسان كندة ، و كتائب حمير . ولقد كان ذكر غير هذا اولى بي ، اذ كنت نازلاً بربعيٍ ، ولكنك قلت فأجبت » (١)

طلب الثأر

وارتحل امرؤ القيس فنزل على بكر وتغلب فاستنصرهم فساروا معه الى ان ادركوا بني اسد . فقاتلوهم حتى كثرت

---

(١) الاغاني ٨ : ٧٥ - ٧٦

الجرحى والقتلى فيهم وحجز الليل بينهم . وكانت تلك الوقعة على بني اسد ، فهربوا لاجئين الى المنذر الثالث ملك الحيرة .

ولما اصبحوا تراجعت بكر وتغلب عن نصرة امرىء القيس وقالوا : « قد اصبت ثأرك » : والله ما فعلت ولا اصبت من بني كاهل ، ولا من غيرهم من بني أسد ، احداً » قالوا : بلى ولكنك رجل مشؤوم ! » وانصرفوا عنه .

عند ذاك لجأ امرؤ القيس الى ابن عمته عمرو بن هند ، وكان والياً لابيه المنذر ببقة ، بين الأنبار وهيت ، فمدحه . واستقبله عمرو فمكث الشاعر عنده زماناً . حتى عرف به المنذر ، وقد ذكرنا ان الاسديين لجأوا اليه ، فطلبه . فانذره ابن عمته . فهرب الى اليمن مستنصراً اذ وشنوءة ، فابــوا أن ينصروه . فتركهم قاصداً ذوي قرباه من بني حمــير ، فاعطوه خمسمائة رجل ، وتبعه غيرهم من شذاذ الطرق ، واستأجر من القبائل رجالاً ، فسار بهم طالباً بني أسد .

ومر في طريقه على تبالة وبها صنم كان العرب يعظمونه يقال له « ذو الخلصة » فاستقسم عنده بقداحه ، وهي ثلاثة : الآمر ، والناهي ، والمتربص . فاجالها ، فخرج الناهي . ثم اجالهـا ، فخرج الناهي . ثم اجالها فخرج الناهي . فجمعها وكسرها

وضرب بها وجه الصنم ، وقال : « ويحك ابو ابوك قتل ، ما عقتني ! » ثم خرج فظفر ببني أسد [١] .

طلب المنذر لامرىء القيس – تنقله في القبائل : « الملك الضليل » وكان ان المنذر شدد الطلب على امرىء القيس ، فوجه الجيوش في ذلك ، فتفرقت حمير . ونجا الشاعر في عصبة من بني آكل المرار ، وكان ذلك نحو السنة ٥٢٧ [٢] حتى نزل بالحرث بن شهاب من بني يربوع بن حنظلة ، ومعه ادرع خمس [٣] : الفضفاضة ، والعنافية ، والمحصنة والخريق ، وام الذيول ، كن لبني آكل المرار يتوارثونها ملكاً عن ملك . فما لبثوا عند الحرث بن شهاب حتى بعث اليه المنذر مائة من رجاله يوعده بالحرب ان لم يسلم بني آكل المرار . فاسلمهم . ونجا امرؤ القيس مع بنته هند وابن عمه يزيد بن معاوية بن الحرث والادرع والسلاح. وظل شريداً يتنقل على امراءالعرب كسعد بن ضباب والعلى بن تيم في بني جديلة ، واسياد بني

---

(١) الاغاني ٨ : ٧

(٢) de perceval , o p. cit. cit 11 , 311 الروائع ٧ الطبعة الثانية

(٣) وقد جعلها ابن قتيبة « مائة درع » الكتاب المذكور ، ص ٤٥

فزارة ، وبني نبهان ، وبني طي ، حيث تزوج ام جندب وطلقها كما سيأتي ، حتى سمي « بالملك الضليل » . وقد مرت عليـــه ، في تنقلاته هذه ، صروف عديدة . فكثيراً ماطمع فيه ذؤبان العرب ، وكثيراً ما تعرض للذل والسؤال . وقد انتهبت ابله في بني تبهان . فعوضوه منهـا عدداً مـن المعزى يتبلع بحليبها . فقبل ذلك بشكر وتحمله بصبر ، قائلاً :

الا ! ان لم تكن ابـلٌ ، فمعزى
كأن قرون جلتهـا العصي
اذ مـا قام حالبها ، أرنت ،
كأن الحـي بينهـم نعيٌ
فتملأ بيتنـا أقطـاً وسمنـاً ؛
وحسبك مـــن غنى شبع وريُ (١)

واذ كان في بني فزارة قال له عمرو بن جابر بن مازن : « يا ابن حجر ، اني اراك في خلل من قومك ، وانا انفس بمثلك من اهل الشرف . وقد كدت بالامس تؤكل في دار طي . واهل البادية اهل برٌ لا اهـــل حصون تمنعهم . وبينك وبين اليمن ذؤبان من قيس . افلا ادلك الى بلد تلجأ اليه ؟ فقد جئت قيصر

---

(١) الاغاني ٨ : ٧١

وجئت النعمان ، فلم ار لضعيف نازل ولا لمجتهد مثله ولا مثل صاحبه !» قال : « من هو؟ واين منزله ؟ » قال : « السموأل بتيماء ... وفي حصن حصين وحسب كبير »[١]

عند السموأل

ثم صحبه عمرو مع رجل آخر من بني فزارة يقال له الربيع بن صنع ، فاوصله هذا الى السموأل . فاجاره ما شاء . الى ان رحل الى بيزنطية كما سيأتي ، تاركا عنده ابنته وادرعه . فلم يسلمها هذا الالورثته على الرغم من ان الحرث بن ابي شمر الغساني ، طالب الادرع بعد وفاة الشاعر ، هدد بقتل ابنه . ففضل السموأل ان يقتل ابنه على أن يحفز ذمته . وهذه الحادثة هي المشهورة « بوفاء السموأل » .

عند قيصر – فوز امرىء القيس

ولم يبق من شك اليوم ان امرء القيس ، اثناء تطوافه في البلاد العربية ، ارسل الى يوستنيانوس قيصر (٥٢٧ – ٥٦٥) وفداً يطلب منه النجدة على مناوئيه ، دفعه الى ذلك ما كان يعرفه عن العهد المقصود بين جده الحارث وانسطاس قيصر ،

(١) الاغاني ٨ : ٧٢

الامبراطور السابق ، كما يفيدنا فوطيوس ناقل خبر سفارة نُنُّوز الى الحبشة والحميريين وقبائل البادية[1]

وكان ليوستنيانوس سببان يحملانه على اجابة طلب امرىء القيس : اولهما كون الطالب نصرانياً ، ونحن نعلم من التواريخ أن يوستنيانوس كان من الغُيُر على الدين ؛ وثانيهما ، وهو الاهم كما يظهر من قول بروكوب ، ان عدو امرىء القيس كان المنذر . والمنذر ، كما لا يخفى من عمال الاكاسرة ، منافسي القياصرة في بسط السيطرة على اطراف الجزيرة العربية »

فارسل يوستنيانوس ابراهيم ، والد ننوز المؤرخ المذكور ، « سفيراً الى امرىء القيس (وهو يدعوه قيساً) الذي كان يتولى امر قبيلتين عظيمتين هما كندة ومعد فعقد معه معاهدة ، واخذ ابنه معاوية الى بيزنطية ليبقى رهينة عند قيصر . »[2]

ويذكر بروكوب سفيراً آخر يسميه يوليان جـاء من قبل يوستنيانوس نفسه الى ملك الحبشة وامير الحميريين كي يحملها على أن « يجعلا امرء القيس (وهـو يدعوه قيساً) وكان وقتئذ

---

(١) Migne , P . G . Phitii Bi L . clll. مجموعة مين للآباء اليونان
Col. 46. الروائع ٧ : الطبعة الثانية

(٢) Migne O P Cit . Clll , col. 446 - 47

ضليلاً هاربا من وطنه ، على ولاية معد . وان يضما قواهما الى قوى جيشه فيهجموا على بلاد الفرس . » ثم يزيد المؤرخ عن «قيس»هذا « انه كان احد رؤساء القبائل من نسل كريم وذا بطش في الحرب » وكان ذلك نحو السنة ٥٣١ .

على ان النجاشي لم يقم بما عهد اليه . فعاد امرؤ القيس الى مراسلة يوستنيانوس . فارسل اليه قيصر المؤرخ ننوز نفسه ، ثم اباه ابراهيم ، فحمله هذا الى بيزنطية نحو السنة **٥٣٣** . ويقول ننوز انه قبل ذهابه « قسم ولايته على القبائل بين اخويه يزيد وعمرو . » اما يزيد فهو ابن عمه معاوية ، لا اخوه . واما عمرو فلم نسمع به . فنال من الامبراطور امارة فلسطين » ، وهو امرؤ لا نعرفه الا بفضل ننوز .

رجوع امرىء القيس ـ وفاته (٥٤٠) ـ اسطورة الحلة المسمومة

على أن ننوز لا يشير بشيء الى ما تتناقله كتب الادب العربي من ان امرء القيس عرف ابنة قيصر وهام بها ، ونظم فيها الشعر ، وان قيصر علم بالامر ، بعد رحيل الشاعر من بلاطه فارسل اليه تلك الحلة المسمومة التي لم يكد يلبسها حتى تناثر لحمه ومات .

بيد أن المعروف امرء القيس بينما كان راجعاً من بيزنطية

اصيب ، في انقره ، بمرض كالجـــدري ، فتوفي هناك نحو السنة ٥٤٠ .

ولعل البثور والقروح الناتجة عن هذا المرض اثارت مخيلة رواة العرب ، فرأوا ان حـادثة الحلة المسمومة اكثر تشويقاً واوفر شاعرية من هذا الموت الاعتيادي ، فألفوا تلك الاسطورة الجميلة ، وسمو الساعر « ذا القروح » .

وقبر امرؤ القيس في انقرة ، جنب امرأة من بنات الملوك مدفونة في سفح جبل اسمه « عسيب » ؛ على قول رواة العرب وهنا نرى تفنن الرواة ايضاً بذكرهم أن امرءالقيس ، لما حضرته الوفاة واخبر ان صاحبة هــذا القبر بنت ملك ، قال البيتين الرقيقين المشهورين [١] . وجاء في مخطوط قديم ان قيصر لما بلغه موت امرىء القيس أمر بان ينحت له تمثـــال ، وينصب على ضريحه . وظل التمثال هناك الى ايام المأمون ، وقد شاهــده الخليفة في اثناء غزوه بلاد الروم [٢]

دين امرىء القيس

بحث الكثيرون في دين امرىء القيس . وقد كانت حياة

---

(١) ابن قتيبة : ك . م٤٧ ، والاغاني ٨ : ٧٣ — ٧٤

(٢) الاب لويس شيخو : شعراء النصرانية ص ٣٥

الشاعر الخلاعية في اول عهده ، وتصرفاته المتناقضة في حياته من اتيان اعمال تشجبها الديانة المسيحية من جهة ، والقيام بامور يأتيها المسيحيون من جهة أخرى ، من اعظم أسباب العرقلة في تحديد دينه الحقيقي . ولهذا انقسم العلماء فرقاً فقال بعضهم : ان شاعرنا وثني يلتجىء الى الاصنام عند الحاجة . وقال آخرون لم يكن له من دين معروف ولم يكن ليهتم بهذه الامور . وزعم الاب انستاس الكرملي انه كان على دين المزدكية المتسرب عن الفرس [1] . على أن القول الفصل في هذا الجدال يعود ، على ما نرى ، الى رأي الاب شيخو الذي قتل المسألة درساً في مقال ممتع ، فاستخلص أن امرء القيس كان من احدى البدع النصرانية ، وان لم يكن يمارس هذه الديانة . ولذلك اسباب منها :

١ - ابطال مزاعم القائلين بوثنيته ومزدكيته .

٢ - خلو شعره من اثر الشرك .

٣ - اقراره بوحدانية الخالق في شعره .

---

(١) الاب انستاس الكرملي : دين امرىء القيس الشاعر الجاهلي (المشرق ٨ (١٩٠٥) ٨٨٦)

٤ — ذكره للشيء الكثير من الامور النصرانية .

٥ — انتشار النصرانية في كندة ، وهي قبيلة الشاعر .

٦ — نصرانية آله الظاهره في آثار عمته هند بنت الحرث المعروفة بهند الكبرى التي بنت دير هند ووضعت في صدره هذه الكتابة : « بنت هذه البيعة هند بنت الحرث بن عمرو ... امة المسيح وام عبده وبنت عبيده .

٧ — خروج امرىء القيس الى قيصر ، وهو امر لم يكن يخطر على بال احد من العرب الوثنيين .

٨ — ما كتبه المؤرخان ننوز وبروكوب عن علاقات يوستنيانوس بامرىء القيس [1]

آثاره

الديوان — طبعاته وشرحه

لعل امرىء القيس اول شاعر جاهلي نسبت اليه الاشعار بكثرة ، وفي مختلف الفنون . وقد جمعت اقواله من امد بعيد فظهرت اما على حدة او مع شعر غيره من الجاهليين . وكانت الطبعة الاولى لديوانه ، ما خلا المعلقة ، في باريس سنة ١٨٣٧

---

(١) الاب لويس شيخو : مزدكية امرىء القيس الشاعر الجاهلي (المشرق ٨ (١٩٠٥) ٩٩٨ — ١٠٠٦)

عني بها المستشرق الشهير البارون دي سلان Deslame ، فقدم على قصائد امرىء القيس بحثاً طويلاً باللغة الفرنسية اردفه بتاريخ الشاعر المقتطف من كتاب الاغاني ، ثم نشر الديوان مع ترجمته الى اللاتينية . وطبع الديوان ايضاً في مصر مع شرحه للبطليوسي سنة ١٨٨٢ هـ . (١٨٦٥) وفي مصر ايضاً سنة ١٣٠٨ هـ . (١٨٩٠) مع شرحه للوزير ابي بكر ابن عاصم . وطبع مؤخراً في مصر ايضاً سنة ١٩٣٠ . وفي السنة ١٨٩٠ ، ظهر اول قسم من كتاب شعراء النصرانية للاب لويس شيخو اليسوعي وباوله بحث واسع في شاعرنا .مع مجموعة شعره .

واكثر هذا في الوصف يتناول به مجمل ما يظهر في حياة البدوي عامة ، وما يكتنف امرء القيس خاصة ، وهو كما رأينا في حياته ، امير يحب اللهو والصيد والمغامرة في حوادث الغرام ، ثم بطل متشرد ينشد عرش ابيه والأخذ بثاره . فنرى اذن في شعره ، من جهة وصف الملاهي وايام الصيد والخيول والجمال ، ومن جهة اخرى تهديده لقاتلي ابيه وذكر اسفاره المتعددة ،

على أن اشهر ما في هذه المجموعة من القصائد المعلقة ، وهي

الاولى بين المعلقات ، فتستحق درساً خاصاً .

الوصف في شعره

نصوص مختارة

وصف الأطلال :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل
بسقط اللوى بين الدخول فحومل (١)

فتوضح فالمعراة لم يعف رسمُها
لما نسجتها من جنوب وشمأل (٢)

ترى بعر الآرام في عرصاتها
وقيعانها كأنه حب فلفل (٣)

---

(١) قفا : يخاطب رفيقيه . ذكرى : تذكر . سقط اللوى : منقطع الرمل . الدخول وحومل : موضعان .

(٢) توضح والمعراة : موضعان ، وهذه المواضع الاربعة ما بين امرة الى اسود العين واسود العين جبل . منازل كلاب . لم يعف رسمها . لم يمح اثرها . نسجت الريح : اسقت الرمل ، الجنوب والشمال : ريحان متضادان تهب الاولى من الجنوب وتهب الاخرى من الشمال .

(٣) الآرام : جمع رئم ، وهو الظبي الابيض الخالص البياض والآرام مقلوب آرام . عرصاتها : ساحاتها مفردها عرصة . القيعان : جمع قاع وهي الارض المستويه لا بناء فيها .

كأني غداة البين يوم تحملوا

لدى سمرات الحي ناقف حنظل [1]

وقوفاً بها صحبي علي مطيهم

يقولون : لا تهلك أسى وتجمل [2]

وإن شفائي عبرة مهراقة

فهل عند رسم دارس من معول [3]

وصف الليل :

وليل كموج البحر ارخى سدوله

---

(١) غداة البين : صبيحة الفراق . يوم تحملوا : يوم ارتحلوا . لدى سمرات الحي : عند اشجار الطلح لاهل حي . ناقف حنظل : جاني حنظل ، والناقف هو الذي يستخرج الحب .

(٢) صحبي : جمع صاحبي اصحابي . مطيهم : ابلهم .اسى : حزناً .تجمل : تزين بالصبر .

(٣) عبرة : دمعة . مهراقة مسالة ، ومهراقة لغة بني اسد يقولون بدل اراق هراق . رسم دارس . اثر زائل . من معول . من معتمد او من اعماد

علي ، بانواع الهموم ، ليبتلي [1]

فقلت له ، لما تمطى بصلبه ،

واردف اعجازاً ، وناءَ بكلكلِ [2]

الا ايهـا الليل الطويل ، الا انجلي

بصبح وما الأصباح منك بامثل [3]

فيالك من ليل ، كأن نجومـه

بامراس كتان الى صمّ جندل [4]

يُزلُ الغلام الخف عن صهواته ،

ويلوي باثواب العنيف المثقل [5]

درير كخذوف الوليد ، امره

---

(١) السدول ، جمع سدل ، وهو الستر . ليبتلي ، ليختبر .

(٢) تمطى ، تمدد . الصلب ، الظهر . اردف ، اتبع . الاعجاز ، جمع عجز وهو المؤخر . . ناء مقلوب نأى ، بعد . الكلكل ، الصدر .

(٣) الامثل ، الافضل .

(٤) الامراس ، جمع المرس وهو الحبل . الصم ، جمع الاصم وهو الصلب الجندل ، الصخر .

(٥) الصهوات ، جمع الصهوة ، مقعد الفارس من ظهر الفرس . العنيف ، ضد الرفيق .

تتابع كفيه بخيط موصل [1]

له ايطلا ظبي ، وساقا نعامة

وارخاء سرحان ، وتقريب تتفل [2]

ضليع اذا استدبرته ، سد فرجه

بضاف ، فويق الارض ليس باعزل [3]

كان على المتنين منه ، اذا انتحى ،

مداك عروس او صلاية حنظل [4]

كان دماء الهاديات منجره

عصارة حناء بشيب مرجل [5]

---

(١) الدرير ، بمعنى اسم الفاعل من الدر ، صفة للفرس الذي يدر الجري اي يديه ، ويتابعه ، ويواصله ، ويسرع فيه . الخذروف ، آلة مستديرة من جلد او خشب .

(٢) الايطل ، الخاصرة ، جمعها اياطل . الارخاء ، ضرب من عدو الذئب يشبه جنب الدواب . السرحان ، الذئب . التقريب ، ضرب من العدو يكون بوضع الرجلين موضع اليدين . التتفل ، ولد الثعلب .

(٣) الضليع ، العظيم الاضلاع . الاستبداد . النظر الى الشيء من مؤخره الفرج الفضاء بين اليدين والرجلين . طويل سابغ ، نعت لمحذوف تقديره ذيل . الاعزل ، الذي يميل عظم ذنبه الى احد الجنبين .

(٤) المتنان ، ما عن يمين الفقار وشماله . الانتحاء ، الاعتماد المداك ، الحجر الذي يسحق به الطيب . الصلاية ، الحجر الاملس الذي يسحق عليه شيء .

(٥) الهاديات المتقدمات الرجل ، من الشعر المسرح .

فعنّ لنا سربٌ ، كأن نعاجَه
عذارى دوار في ملاء مذيل [1]

فادبرن كالجزع ، المفصل بينه
بجيد مقمّ ، في العشيرة ، مخـول [2]

فالحقنـــا بالهاديات ، ودونه
جواحرها ، في صرة لم تزيـل [3]

فعادى عـــداء بين ثور ونعجة
دراكا ، ولم ينضح بماء فيغسل [4]

فظل طهاة اللحم من بين منضج
صفيف شواء ، او قدير معجل [5]

---

(١) عن ، عرض ، ظهر . سرب ، قطيع . النعاج ، اناث الضأن وبقر الوحش وهذا هو المراد . الدوار ، حجر كان عرب الجاهلية ينصبونه فيطوفون حوله تشبها بالطائفين حول الكعبة .

الملاء ، ملاءة . المذيل ، الطويل الذيل .

(٢) الجزع ، الخرز اليماني . الجيـــد ، العنق . المعم ، المخول ، الكريم الاعمال والاخوال

(٣) الجواحر ، المتخلفات . الصرة ، الجماعة . التزيل ، المفترق

(٤) العداء ، الموالاة . الدراك ، المتابعة .

(٥) الطهاة ، جمع الطاهي ، الطابخ . الصفيف ، اللحم المصفوف على الحجارة القدير ، اللحم المطبوخ في القدر .

ورحنا يكاد الطرف يقصر دونه

متى ما ترقّ العين فيه تسهل (١)

فبات عليه سرجه ولجامه ،

وبات بعيني قائماً ، غير مرسل (٢)

وصف البرق

اصاح ترى برقاً أريك وميضه

كلمع اليدين ، في حبي مكلل (٣)

يضيء سناه ، او مصابيح راهب

امال سليطاً بالذبال المفتل (٤)

---

(١) الترقي ، الارتفاع (٢) غير مرسل ، غير مرسل الى المرعى

(٣) الحبي ، السحاب المتراكم سمي كذلك لانه حبا بعضه على بعض فتراكم المكلل ، نعته بذلك لانه صار اعلاه كالاكليل لاسفله

لمع اليدين ، اي اريك وميض هذا البرق في السحاب المتراكم يلمع كتحريك اليدين

(٤) السليط ، الزيت . الذبال ، جمع ذبالة وهي الفتيلة .

وصف السحاب والبرق والغيث :

ديمة هطلاء فيهـــا وطف
طبق الأرض تحرى وتدر [1]
تخرج الود اذا مـا أشجذت
وتواريه إذا ما تشتكر [2]
وترى الضب خفيفاً ماهراً
ثانيا برثنه مـــا ينعفر [3]
وترى الشجراء في ريعتهـــا
كرءوس قطفت فيها خمر [4]

---

(١) الديمة ، المطر يدوم في سكون دون رعـــد ولا برق . الوطف ، استرخاء السحابة . تحرى ، تتحري المكان وتثبت فيه . تدر ، تمتلىء .

(٢) الود ، اسم جبل . اشجذت ، اقلعت وسكنت . تواريه ، تخفيه . تشتكر ، تهطل بالمطر وفي رواية تعتكر

(٣) الضب ، حيوان زاحف يشبه الجرذون . البرثن ، المخلب . مـا ينعفر ، لا يصيبه العفر وهو التراب .

(٤)الشجراء ، الارض ذات الشجر . ريقها ، أولها . خمر ، جمع خمار ، وهو للمرأة كالعمامة للرجل .

ساعة ، ثم انتحاها وابـــل

ساقط الاكناف ، واه ، منهمر [1]

راح تمريه الصبا ، ثم انتحى

فيه شؤبوب جنوب منفجر [2]

شج حتى ضاق عـــن آذيه

عرض خيم ، فخفاف ، فيسر [3]

---

(١) انتحاها : قصدها . وابل : مطر شديـــد يصدر عنه السيل . ساقط الاكناف : ثابت النواحي . واه : ضعيف يتشقق منه الماء ، وينخرق عنـــه المطر . منهمر : شديد الانصباب .

(٢) راح : سار عشيا . تمريه : تندره . واصله مـــن مرى الضرع اذا مسحه ليدر . الصبا : ريح باردة تهب من الشمال ، شؤبوب : دفعة من المطر الجنوب : ريح تهب من الجنوب .

(٣) شج : سال وصب . آذيه : موجه . عرض ناحية او اتساع خيم وخفاف ويسر : اسماء امكنة قريبة من الدهناء ، او في بلاد بني يربوع .

وصف الحمار الوحشي :

كأني ورجلي فوق أحقب قارح
بشربة أوطاو بعرنان موجس (١)
تعشى قليلاً ، ثم انحى ظلوفه
يثير التراب عن بيب ومكنس (٢)
يهيل ويذري تربها ويثيرها
اثارة نباش الهواجر مخمس (٣)
فبات على خد أحم ومنكب
وضجعته مثل الأسير المكردس (٤)

---

(١) الاحقب : الحمار الوحشي الابيض مكان الحقيبة . القارح : الذي شق نابه . شربة : اسم عين ماء . طاو ، جائع غرثان . بعرنان ، عرنان ، اسم جبل . موجس ، حذر ، خائف .

(٢) انحى ظلوفه ، عدل اظافره استعداداً للنبش . يثير ، يسغى الكناس والمسكن (٣) يهيل ، يسقط . يذرى ، يطير ويثير . نباش الهواجر ، النباش في اوقات الظهيرة وهذا الوصف يغلب الضيعة . مخمس ، خامس خمسة .

(٤) احم ، اسود او ابيض فهو من اسماء الاضداد ، والوصف بالبياض هو المراد . اذ وصفه باول بيت بانه احقب . المنكب ، مجتمع الكتفين . المكردس ، المقيد .

وبات الى أرطاة حقف كأنها

اذا ألثقتها غبية بيت معرس (١)

فصبحه عند الشروق غدية

كلاب ابن مر او كلاب ابن سبنس (٢)

مغرثة زرقاً كأن عيونها

من الذمر والايحاء نوار عضرس (٣)

فأدبر يكسوها الرغام كأنها

على الصمد والاكام جذوة مقبس (٤)

---

(١) الى ارطاة ، الى جانب شجرة ارطاة . وثمر هذا الشجر يشبه العناب الحقف ، الرمل المجتمع . ألثقتها : بللتها ولذتها . غبية ، الغبية الدفعة الشديدة من المطر . المعرس ، المتخذ له عرسا .

(٢) فصبحه ، جاءه عند الصباح . غدية ، تصغير غدوة . ابن مروا بن سبنس . صيادان ماهران من قبيله طيء .

(٣) مغرثة ، مجاعة لتكون اشد فتكا ، واقوى عدوا .الذمر ، الاثارة واللوم والتحريض . الايحاء ، الايماء . والاشارة. نوار ، زهر النبات العضرس شجر له نور احمر .

(٤) فأدبر ، فرجع . يكسوها الرغام ، يغطيها الغبار . الصمد ، المكان المرتفع . الاكام ، جمع اكمة وهي كالصمد في المعنى . جذوة . شعلة . مقبس طالب قبس من نار .

وأيقن إن لا قينه ان يومه

بذي الرمث إن ماوتنه يوم أنفس[1]

فأدركنه يأخذن بالساق والنسا

كما شبرق الولدان ثوب المقدس[2]

وغورن في ظل الفضا وتركنه

كقرم الهجان الغادر المتشمس[3]

---

(١) ايقن : وثقن . بذي الرمث : كناية عن مكان به من شجر الرمث الكثير . ماوتنه : صابرنه وجالدنه حتى الموت . يوم انفس : يوم زهاق انفس

(٢) يأخذن : يعقفن الساق : ما بين الكعب والركبة . النسا : عرق من الورك الى الكعب . شبرق : مزق . الولدان ، الغلمان . المقدس ، الرجل المطهر نفسه من الادناس .

(٣) غورن ، سرن في الارض المنحدرة ، كقرم الهجان ، كالفحل الكريم الغادر ، الناقة المنفردة . المتشمس ، الشموس النفور .

وصف حرب ناشبة بين عقاب وذئب :

كأنها حين فاض الماء واحتملت
فتخاء لاح لها بالفقرة الذيب[1]
فأبصرت شخصه من فوق مرقبة
ودون موقعها منه شناخيب[2]
فأقبلت نحوه في الجو كاسرة
يحثها من هوى اللوح تصويب[3]
صبت عليه ولم تنصب من امم
إن الشقاء على الاشقين مصبوب[4]

كأنها ، الضمير يعود على الفرس التي كان يصفها قبلا . الاحتمال ، الانتقال فتخاء ، لينة الجناحين عريضتهما .

(٢) المرقبة : المكان المرتفع بعلوه الرقيب . الشناخيب ، مفردها شنخاب او شنخوب ، اعلى الجبل .

(٣) كاسرة ، منقفة تكسر جناحيها . يحثها يدفعها . هوى ، سقوط . اللوح ، بضم اللام الهواء بين السماء والارض . تصويب ، انحدار .

(٤) صبت عليه . اندفعت اليه . من امم ، من قرب .

كالدلو بتت عراهـــا ، وهي مثقلة
اذ خانها وذم منهـــا وتكريب [1]

لا كالتي في هواء الجـــو طالبة
ولا كهذا الذي في الارض مطلوب [2]

كالـــبرق والريح مرآتاهما عجب
ما في اجتهاد على الاصرار تغبيب [3]

فأدركته ، فنالته مخالبهـــا
فانسل من تحتها ، والدف مثقوب [4]

---

(١) بتت عراها ، قطعت مقابضها . وهي جمع عروة . مثقلة ، ممتلئة ثقيلة. الوذم ، سيور بين آذان الدلو ، ويجمع على وذوم ، وأوذام . واوذم التكريب جعل الكرب وهو الحبل في الدلو .

(٢) كالتي في هراء الجو ، كناية عن العقاب ، طالبة ، باغية صيداً وحربا كهذا ، اسم الاشارة عائد على الذيب . مطلوب ، مرغوب صيده .

(٣) كالبرق ، يقصد العقاب . الريح ، يقصد الذئب . مرآتاهما تثنية مرآه بمعنى منظراهما . عجب ، عجبب ، غريب . التغبيب ، التقصير .

(٤) مخالبها ، جمع مخلب اظفارها . فانسل ، فنزع نفسه برفق . الـــدف مثقوب ، الجنب منقوب .

يلوذ بالصخر منها بعد مـا فترت

منها ومنه عـلى الصخر الشآبيب (١)

ثم استغاثت بمتن الارض تعفره

وباللسان وبالشدقين تتريب (٢)

مـا أخطأته المنايا قيس انملة

ولا تحرز الا وهـو مكثوب (٣)

يظل منجحراً منهـا يراقبهـا

ويرقب الليل ان الليـل محبوب (٤)

---

(١) يلوذ ، يلجأ ويحتمي . فترت ، تراخت . منها ومنه :من العقاب والذئب الشآبيب ، جمع شؤبوب ، يريد شدة الدفاع كل منهما .

(٢) استغاثت ، استعانت والضمير يعود على العقاب . تتريب ، تراكم التراب فوق الشيء .

(٣) المنايا ، جمع منية ، وهي الموت قيس ، مثل قيد يعني قـدر انملة ، والانملة ، رأس الاصبع . تحرز ، تحصن . مكتوب ، مكرور عليه ، مهجوم نحوه من كثب اذا كر .

(٥) يظل يبقى طوال يومه . منجحراً ، مختبئا في الجحر يراقبها ، يلاحظها يرقب الليل ، ينتظره محبوب ، مرغوب فيه لانه منقذ له .

وصف الحرب وسوء عواقبها :

الحرب اول ما تكون فتية

تبدو بزينتها لكل جهول

حتى اذا حميت وشب ضرامها

عادت عجوزاً غير ذات خليل

شمطاء جزت شعرها وتنكرت

مكروهة بالاثم والتقبيل

وقف شاعرنا واستوقف وبكى واستبكى ثم قال : « ايها الخليلان الوفيان ، قفا فأسعداني بالبكاء ، من تذكر حبيب عزيز علي ، ومنزل كريم لدي ، لقد تذكرت حبيباً تساقينا معا افاويق الهوى ، ومنزلا تبادلنا فيه اسباب اللهو ، ذلك المنزل الكريم عند منقطع الرمل بين الدخول ، وحومل ، وتوضح والمقراة . تلك الدار لم ينمح اثرها ، ولم يعف رسمها لنسيج الرياح السافيات فحسب ، ولكنها انمحت لمر الدهور ، وعفت لكر الايام ، ترى في مكان تلك الدار بَعر الظباء الصافية البياض يملأ عرصاتها ، كأنه في سواد لونه ، واستدارة شكله ، وصغر حجمه حب الفلفل .

كأني صبيحة احتمالهم وغداة ارتحالهم عند شجر الطلح الذي يستنبته اهل الحي أنقف الحنظل ، واستخرج منه حبة ، فتسيل مآقي ، وتجري عبراتي ، لقد وقف أخلاي مطاياهم على تلك الدار يشاركونني في أساي ، ويسلونني عن وجدي ، قائلين : صبراً وجلداً ، وتحملا وتجملًا ، لا يهلكك الأسى ، ولا يقض عليك الوجد ، وتجمل بالصبر وتحل بالجلد .

ان دوائي مما الاقي من وجد دمعة تراق . وشفائي مما اجد

من اسى عبرة نصب ، ومع ذلك فما جدوى البكاء على الرسوم وما فائدة اراقة الدموع على الاطلال ؟

وما ان انتهى من وصف الاطلال حتى راح يصف الليل فقال شاكيا من ليله الذي طال امده ، فزداد عليه الالم فيه :
« رب ليل كموج البحر المتلاطم اسدل علي ظلمته ، وبسط فوقي وحشته ، وارسل الي الواناً من الهموم ، واسدل علي انواعاً من الاحزان ، ، ليختبر منني ويمتحن قواي ، ويتبين جلدي وصبري ، فقلت له وقد رأى مني صبراً وعزماً ، وقوة ومنة .

ايها الليل الطويل اتمنى عليك بعد ان عرفت عزيمتي ان ينفلق صبحك ، وينكشف ضوءك ، وان تزول غياهبك ، وتنهتك استارك ، وان يكن ذلك الصبح المأمول ليس باوضح منك وجها ، ولا بامثل منك حسناً ، فكلا كما مبعث هم ، ومصدر غم و كرب ، ولكنه التغيير قد يشعر ببعض الراحة .

ما اعجبك ليلا ثابتـــاً لا يتزحزح ! راسخاً لا يتزعزع ، حتى لكأن نجومه السائرات شدت الى رأس من الجبال بمغار الفتل من الامراس والحبال ، فليس لها مسير وان طال بها الامد .

وانتقل بعد ذلك الى وصف الفرس وراح يتغنى بمحاسن

جواده فقال : « قد اغدو بكرة مرحاًنشيطاً ، واي نشاطاو فر من نشاط اسبق به رمز النشاط ، اسبق به الطيور التي لا تزال في وكراتها لماتصح لتشقشق وتغرد ، اغدو معتلياً صهوة جواد كريم ، قد انحسر شعره لوفرة سمنه ، جواد ماض لا يقف في طريقه كائن حتى انه ليقيد بسرعته الوحوش الآبدة ، فما تستطيع حراكا وهو الفرس النهد العظيم ، المكر فلا يسبق ، المفر فلا يلحق ، المقبل حين تريد اقبالاً فلا يصد ، المدبر اذا رغبت في ادباره فلا يرد ، وهذه الصفات متجمعة في قوته ، لا أنه يأتيها جميعها ، كأنه في سرعته وصلابته حجر عظيم أسقطه السيل الزاحف ، من السمو الى الهوى ، هذا الفرس الكميت الضخم الجسم ، المكتنز اللحم ، حتى ليسقط اللبد عن أوسط ظهره سقوط الصخرة الملساء بالمطر الهاطل ، وهو ضامر ذابل كثير الجيشان ، حتى لتخال تكسر صوته اذا حمى في عدوه جيشان الماء في الرجل .

يصب هذا الجواد عدوه صبا ، فيأتي بأفانين تتيح له السبق في الوقت الذي ادرك الجياد السابحات الونى والكلال ، ويبدو ذلك الاعياء من انها تثير في الارض الصلبة الغبار ، يزلق الغلام النحيف الخفيف الذي لم يدرب على الفروسية عن صهوته ،

ويرمى بأثواب الفارس العنيف الماهر الشديد في جهات ثلاث ، يرمى بها الى اعلى والى شمال والى يمين ، وهو يستدر عدوه ، ويوالي جريه كما تدر ذوات اللجن ضرعها ادراراً متتابعاً او هو في تتابع أفانين سبقه كخذروف الصبي أحكم فتل خيطه ، وتتابعت كفاه في ادارته بخيط قطع ثم وصل ، فهو كالخذروف يبدأ هادئاً ، ثم يشتد شيئاً فشيئاً بين انبساط وانقباض .

ترى لذلك الفرس النهد خاصرتي ظبي ، وساقي نعامة قصيرتين صلبتين ، وسيرا كسير الذئب ليس بالشديد ولا البطىء ، وتقريباً في سيره بين قوائمه كما يفعل ولد الثعلب عندما يسرع اذ تقع قدماه الخلفيتان مكان قدميه الأماميتين ، فهو قد أخذ من كل حيوان اجمل ما يتصف به ، فأخذ من الظبي خصره الضامر ، ومن النعامة ساقها القصيرة الصلبة ، ومن الذئب سيره المرخى ، ومن التتفل تقريب قوائمه في سيرها .

وهو مع ضمور خصره عظيم الاضلاع ، ممتلىء الجنبين ، اذا تأملته مستدبراً رأيته يسد الفضاء الذي بين قائمتيه بذنبه الضافي السابغ الذي يكاد يصل الارض ، في استقامة واستواء ، كأن ظهره الاملس حينما ينزع عنه سرجه قائماً امام البيت في صفائه وملاسته مداك عروس او صلابة حنظل ، واختياره مداك

العروس ؛ لأنه دائم الطيب ، وصلاية الحنظل لانه يسيل منها دهن فتلمع جوانب الصلاية وتبرق ، و كذلك جلد الفرس فيه نصاعة وصفاء ، ولمعان وبريق .

هذا الفرس يقيد الأوابد ، ويدرك الهاديات الشوارد ، وفارسه حينئذ يطعنهـــا طعنة عميقة يتدفق منها الدم غزيراً ، فيضرج سخر ذلك الفرس الكريم ، فاذا هو كالشيب الرجل بالحناء ، لقد عرض لنا قطيع من البقر الوحشي هو آية الجمال وعنوان الحسن ، فظهورها بيض نواصع ، وقوائمها سود حوالك يشبهن فتيات عذراوات ، يملك صفاء بشرتهن القلوب ، وقد اسبغن على ارجلهن مـــلاء سودا ذوات اذيال سابغة ، ويختلن اختيال اولئك العذارى اذ يـــدرن حوله يقدسنه ويعظمنه ، واذهن في تلك الحال الملأى باسباب المسرة بدون لهن ففزعن اعظم الفزع ، وأدبرن متفرقات و كن من حين متجمعات مختالات فبدون في تفرقهن كالجزع سائره ابيض وأطرافه سود ، وقد فصل بعضه عن بعض بجوهر كريم ، يزدان به عنق غلام نبيل ، فهو كريم الاعمام والأخوال ، ولكن تفرقهن لم يفتهن شيئا ؛ اذ الحقنا الجواد الكريم بالسوابق منهن ، وترك من خلفه الجواحر المتخلفات ، فاراد كه للاوائل كفيل باقتناص الاواخر .

وهي اذ تفرقت تفرقت جماعات ، فعادى بينها عـــداء ، ووالى الجري موالاة ، بين ثيران ونعاج ، فأدر كهن لم يجهده الادراك ، ولا اشقاه العـــدو ، فلم يسل منه عرق ، فيغسل جسمه .

ثم وصف البرق فشبه لمعانه وضوءه وتحركه بضوء مصباح الراهب اذا صب الزيت في سراجه فحرك الفتائل، فتمايل النور في حنايا المعبد المظلمة — وفي الشطر الثاني قلب اصله : امـــال الذبال بالسليط . ثم وصف السحاب والبرق والغيث في قصيدة غير المعلقة ، فقال : « هذه مطرة دائمة التسكاب » ومزنـــة ماضية الانصباب ، غايتها ملء اطباق الأرض بدموعها الغزار ، فترى اوتاد الاخبية بادية ظاهرة عندما تقلع عن السكب وخافية متوارية عندما يحتفل المطر ، ويشتد الغيث ، فهي تبدو اذا هدأت ، وتتوارى اذا غضبت ، وترى الضب ، وقد ابرزه المطر مـــن حجره سابحاً ماهراً ، خفيفاً نشيطاً ، يثني برثنه ويبسطه ، كما يثني السابح ذراعه ويمده ، فلا ينعفر بالتراب ، فقد اذهبه طول الانسكاب ، وترى الارض ذات الاشجار ، وقد غطاها المطر اول دفعاته ، فليس يبدو منها الا رؤوس أشجارها ، فظهرت وقد علاها الزبل كرؤوس انفصلت عن

أعناقها ، وغطتها خمرها ، استمر هذا الغيث ساعة ،ثم اعتمدها وابل منهمر ، وسيل منحدر ، يعم نواحيها ، ويفصم أكنافها فالسحاب متشقق بالماء .

راح ذلك السحاب عشيا – وقد استدرته ريح الصبا ، ومراه بردها – راح يتكانف ويتراكم ثم قصدته ريح الجنوب وافدة من بحر الهند مثقلة بالقطار ، فاضافت اليه دفعة أخرى فاذا هو ينصب انصباباً حتى ضاق عن آذيه المضطرب وموجه المصطخب عرض هذه الجهات مع اتساع آفاقها ، وامتداد اكنافها .

وقال يصف حمار الوحش في قصيدة اخرى فشبه ناقته من فوقها رحله بالحمار الوحشي الفتي ، ثم انصرف عنها اليه ، فهو ممتلىء نشاطاً وعراماً لانه قارح ، او لانه طاوي الكشح ، او لانه قارح طاوي الكشح معا ، وهو قبالة عين ماء ، او فوق جبل متباعد الأنحاء ، انه هنا وهناك ، لانه لا يسكن ولا يهدأ فهو خائف متوجس ، حذر متربص ، لم ينل من الطعام في امسيته ما يسد جوعته ، او يمسك صلبه ، انه جامع أظلافه يهيل بها التراب ، كأنه يبحث عن مكنس او مسكن ، مثله اذ يهيل الثرى ويذريه كمثل الضباع تنبش التراب ساعة الظهيرة ، فاذا

هيأ له مناماً هدأ عزمه ، وفتر نشاطه ، ونام على خد ومنكب ابيضين ، وهو في ضجعته الهادئة كالاسير العتيد لا يبدي حركة ولا يحدث ضجيجاً .

قد اتخذ كناسه الى شجرة تجمع حولها الرمل ، فكأنها اذا بللتها دفعة من المطر ، او ندتها مزنة من سحاب ، بيت رجل أعرس ، فهو هادىء ساكن ، ولكنه اذ ينفجر العجز ،ويتنفس الصبح تصبحة كلاب مغزاة على الصيد كأنها في ضرواتها ودربتها كلاب « ابن مر او كلاب ابن سنبس » .

وهي الى هذه الضراوة مغرثة مجاعة ، لتكون اشد فتكا واقوى عراما ، فعيونها لقسوة ذمرها وحرضها ، وشدة ثورانها وهياجها حمراء مشتعلة كأنها نوار عضرس .

رأى الحمار هذا الكلاب يذمر كلابه ، فشد يخلف من ورائه سحابا من الغبار ، يكسو هذه الكلاب فكأنه — اذ يعلو الأصماد والآكام ، ويرتفع الى الربا والنجاد ، ويختلط الغبار المتطاير ببياضها ، فتغير لونها — جذوة من نار .

وكلما ايقن انه ان لاقى هذه الكلاب في وادي الرمث ، فان نفوسا ستهلك ، ودماء ستهرق ، قد تكون نفسه احداها وقد يكون دمه هو الدم المهراق سابق الريح ، وامعن في شدة

لا يبقي من عدوه على شيء .

ثم انه يتصور أنها ان ادركته فستأخذ بساقيه ووركيه فتمزقها تمزيقاً ، تمزيق الغلمان الأغرار الفين الراهب المطهر ذا التقوى والبركات آئبا من بيت المقدس ، فهم يتبركون به ، فيمزقون ثيابه التماساً للبركة ، وطلبا للمغفرة .

هذه الكلاب انحدرت الى ظل أشجار الغضا بعد ان يئسن من لحاقه ، وأيقن عدم القدرة على ادراكه ، وتركنه قوياً نشيطاً لم يمسه نصب او لغوب ، فهو كالفحل الهجان ، المنفرد في حظيرته ، الشموس لا يقوى أحد على مواجهته .

ثم وصف حرباً ناشبة بين عقاب وذئب في ابيات بائيه يشك النقاد في نسبتها اليه الا ان خصائصها تنطبق على خصائص شعره فوصف فرسه بانها عند انهمار الماء ، وانحدار الشد ، وانضمام الخصر ، ولحوب المتن كالعقاب ظهر لها في الارض القفر ذئب ، ثم تأكد رؤيتها اياه بعد أن تأملته من قمة لا يحجب الناظر منها حاجب ، ولكن بينها وبينه ربا ونجادا ، فلم تخش قطعها ، بل اقبلت نحوه منقضة ، تكسر في انقضاضها اليه جناحيها ليشتد طيرانها ، يضاعف هويها في ذلك الجو أنهـــا تنقض منحدرة ، اندفعت اليه من مكان بعيد ، وهوت عليه من مرقب سحيق

لتنزل عليه سخطها ، وتنشب فيه مخالبها ، فما اشقاه ! ان الشقاء ليفد عليه من حيث يدري ولا يدري ، وحقا : « ان الشقاء على الاشقين مصبوب » او « ان الشقي بالشقاء مولع » .

هوت عليه قوية دافقة ، وانصبت نحوه عازمة عارمة ، كأنها الدلو المثقلة بالماء قد انبتت عراها ، وخانها ذمها وتكريبها فسقطت كجلمود الصخر ، ليس كهذه التي تهوي من الجو تطلب صيدا في قوتها وعرامها طالب ، ولا كذلك الذي يرخي فوق الارض خوف ذلك الطالب مطلوب .

ما اشبه الطالب والمطلوب بالبرق والريح ، فالريح يعصف من ورائه البرق يلمع ، فمنظراهما عجيب ومرآتاهما غريبة ، اذ كلاهما يصر على الاجتهاد دون تقصير فيه ، ويعزم على امر لا يحيد عنه ، هي تعزم على الفتك ، وهو يصر على الخلاص منها ، فما في عزميهما تغبيب .

ولكنها انفذت اصرارها ، وادركت ما عزمت عليه ، فنالته مخالبها ، وانشبت فيه أظافيرها ، ولكنه استطاع أن ينسل من تحتها ، وان يتخلص من براثنها ، وقد نقب جنبه وثقب دفه ، واخذ يلجأ الى الصخور يختبىء تحتها ليحتمي بها منها ، وكان الصراع قد ثبط من همتيهما ، والنضال قد اوهى

من قوتيهما ، فانتقل الهجوم والدفاع ، والكر والفر فوق ذلك الصخر الذي لجأ اليه ، ولاذ به ، فلجأ الى غير الصخر ؟ فاستعان بمتن الارض يثير غباره ويهيج عفره ليحجب بذلك التراب عن العقاب شخصه ، فترب لسانه وشدقيه ، دون أن تخطئه المنايا ، او يغلط الموت في معرفة مكانه ، لم يخطىء الموت قيد أنملة ، ولا نفعه التحرز والتحصن وهي كارة عليه ، مندفعة اليه ، فهو يظل يومه مختفياً في الاحجار ، مختبئاً بين الصخور ، مترقباً الليل المحبوب ليحميه من ذلك العدو الجبار .

وقال يصف الحرب وسوء عواقبها : « الحرب في اول امرها شابة فتية ، فيها حسن وخلابة وفتنة ، لانها تومي بالظفر والنصر وطيب الاحدوثة حتى اذا وقع الناس في لهيبها وحمي وطيسها واشتعل ضرامها ظهرت على حقيقتها عجوزاً نكراء لا تبقى على خليل ، ولا تحتفظ بخليل ، وكيف ذاك ؛ وهي تتخذ منهم غذاءها ، فدماؤهم شرابها ، ولحومهم طعامها ، انها تبدو شمطاء شوهاء ، قبيحة المنظر ، دميمة المرأى ، قد جزت شعرها فزادها ذلك نكرا ،وتنكرت لمن كانت تزعمهم اصدقاءها فعادت مكروهة للثم والتقبيل .

اجمع النقاد على ان هذه القصيدة اروع ما قال الجاهليون كما عدوا مطلعها اروع مطالع الشعر العربي ، قالوا عن امرىء القيس : « انه وقف واستوقف ، وبكى واستبكى ، وذكر الحبيب والمنزل في شطر واحـــد في مطلع معلقته ، وهذا ما يعجز جميع فحول الشعر ، وقد حدد الشاعر دار المحبوبة تحديداً جغرافيا دقيقا ؛ لأن قلبه معلق بهـا ، فكيف ينسى دارها ؟

ثم صور آرامها وبعرهـا تصويراً صادقاً لا مبالغة فيه ولا غموض ، كما صور ساعة الرحيل اذ وقف لدى شجرات الطلح يسفح الدمع تصويراً جميلاً .

ثم انتقل من وصف الاطلال الى وصف الليل فكان اقدر من وصف الليل ، وهذه الأبيـات اروع ما قاله في وصفه ، ومبعث روعتها تصويره الليـــل في نكره ووحشته ، وهوله ورهبته ، بامواج البحر تطوي ما يصادفها ، وكذلك مناجاته الليل مناجاة تنم عن الصبر مع اليأس ، وهذه قدرة لم نلمسها الا عند امرىء القيس « ومـا الاصباح منك بامثل » وتصويره الليل بالجمل يتمطى بصلبه ، ويردف باعجازه ، وينوء بكلكله تصوير جميل لتشبيه المعنوى بالحسي ، وتصوره النجوم قد ثبتت

في السماء لا تريم عن مكانها بانها مشدودة بامراس تصور مستمد من البيئة ، أخاذ ببراعته في التصور والتصوير .

وقد عاب النقاد القدماء على الشاعر التضمين ، بتعليق معنى البيت الثاني بالبيت الثالث ، ولا نرى في ذلك عيباً ، وانما العيب ان نتكلف جمع معنى في بيت لا يتحمله .

وان من ينعم النظر في وصفه للفرس يجد اروع ضروب الوصف وافتن الوان الجمال ، تزخر الفاظها بمعان لا نبالغ اذا جزمنا انها اوسع مما تعارف عليه اللغويون ، وتصور معانيها صوراً يعجز عن الاتيان بها امهر المصورون ، وانها لترسل وميضاً تشعر به ولا تصوره ، فهي مفعمة بالصور الكاملة ، زاخرة بالحياة النابضة ، فكأنك حيالها في ميدان او في حلبة فرسان .

اي حياة نابضة اوضح من حركة الكر والفر ، والاقبال والادبار ؟ وقد اتت كلها في شطر واحد ، ان هذه لا تصدر عن جواد في لحظة ، ولكنها تلمح في حلبة ، واننا لنتخيل الصخرة العظيمة تسقط من شاهق ، فتمتلىء القلوب من سقوطها هلعا ، وقد نتصورها ، ولكننا نعجز عن تصور اثرها فيمن تسقط عليه ، إلا اننا نستشعره اذ نسمع : « كجلمود صخر حطه

السيل من علي » .

واي حياة خافقه نابضة اقوى من حياة تأخذ بجميع حواسك فترى منها وتسمع ، ولكنك لا تكتفي بالسمع والبصر ، بل تطالبك باللمس وبغير اللمس ، هذه الحياة تبدو في قوله :

على الذبل جياش كأن اهتزامه

اذا جاش فيه حميه غلى مرجل

وان الالفاظ مع قوتها لا تغنيك شيئاً كثيراً في تصور « اهتزامه » ولا في تصوير « غلى مرجـــل » وتخيل حيواناً يتألف من جملة اجزاء لعدة حيوانات ، حيوان له خصر كخصر الظبي ، وساق كساق النعامة وسير كسير الذئب ، وتقريب كتقريب التتفل ، اليس ذلك الحيوان نوع فريد بين سائر انواع الحيوان ؟

وانك لتتخيل الغلام الغر بالفروسية يعتلي صهوته ؛ بل صهواته وفرق بعيد بين اللفظين وان اديا معنى واحداً ، فان هذا الجمع يشعر بالفخامة والضخامة ، والحول والهول ؛ حتى ليكاد الغلام يزول دون ركوب ، لانـه لن يثبت على ذلك الفرس الجبار ذي الصهوات ، لن يثبت عليه لا لجموحه فهو عتيق اصيل ، ولكن لاندفـــاعه فهو القوي الشديد ، وتتصور صورة ذلك

الفرس العنيف العنيد تتطاير اثوابه ، فلا يستطيع جمعها ، فهو مشغول بجسمه عن ثوبه ، وتتصور اثوابه تتطاير في جميع الجهات ، فكأنها جناحان لطائر جارح .

وتتخيل خرارة طفل قد احكم فتل خيطها ، واجاد اللعب ، انك لا تستطيع أن تتبين الخذروف لسرعة دورانه ، ولتتابع حركة الصبي به .

واستطاع شاعرنا – دون تكلف – أن يفصم قصائده بالصور المتكاملة الظلال ، فلنعد هذا النوع لنقف وقفة قصيرة عند نوع آخر تظهر فيه عبقريته .

الدقة في التعبير سمة امرىء القيس الظاهرة وآيته الواضحة ، فتأمل هذا البيت :

كميت يزل اللبد عن حال متنه

كما زلت الصفواء بالمتنزل

فحال متنه وسط ظهره ، وهنا تبدو الدقة ، فقد يزل اللبد لأنه لا يتوسط الظهر ، ولكنه وقد توسطه لا يزل الا لملامسة ظهره ، واكتناز لحمه ، ومثل

مسح اذا ما السابحات على الونى

أثرن الغبار بالكديد المركل

فقد يثور الغبار اذا كانت الارض رملية او متربة او سهلة وليس في ثوراته حينئذ ما يدل على الونى او الكلال ، وانما الذي يدل عليهما هو اثارة الغبار من الكديد ومثل :

ضليع اذا استدبرته سد فرجه

بضاف فويق الارض ليس بأعزل

قد يكون الذيل ضافيا سابغا ولكنه معيب ، لان صاحبه يتعثر فيه لطوله في عدوه ، ولذلك احترس من هذا المعنى بقوله « فويق » دون فوق لتفيد قربه من الارض دون ضفوه عليها.

وتستطيع متابعة التأمل لتحكم بأن الدقة يراعيها كل المراعاة ذلك الشاعر الذي حكم له بأنه استنبط للشعراء معاني ، وفتح لهم في الشعر منابع وعيونا .

وليس عجبا على امرىء القيس ان ينال زعامة الشعر وان تكون اقوى أسباب زعامته وصف فرسه ، فقد صاحبه من مهده الى لحده ، وبين الصاحبين مجاوبة هي أقوى عوامل الاجادة والاحسان ،

وقد وصف امرؤ القيس السحاب والبرق والغيث . وقد تحدث القدماء عن مواطن الجمال في هذا الوصف فقالوا : « ان هذا اشعر ما جاء في وصف الغيث » . وسأل أبو عمرو بن

العلاء ذا الرمة : اي الشعراء الذين وصفوا الغيث أشعر ؟ فقال امرؤ القيس وأنشد الأبيات .

ولكنهم تركوا حكمهم دون تعليل شأنهم في جميع نقدهم وأما مواطن الجمال التي اجملوها فهي تلك الصور المتعاقبة ، فالديمة مسترخية الذوائب ، والأوتاد عارية حينا، ومغطاة حينا والصنب سابح حاذق يثنى برثنه ويبسطه شأنه في ذلك شأن السباح الماهر ، اذ يبسط ذراعيه ويثنيهما ، والارض الشجراء غطيت ، فليس يبدو منها غير رؤوس اغصانها يغطيها الزبد الابيض ، كانه الخمر ، وهي صور فيها الكثير من مظاهر البادية ، فيها وتد الخباء ، والصنب ، والبرثن والخمر .

وصف امرؤ القيس حمار الوحش ، واننا نجد بين معانيه وبين معاني سويد بن ابي كاهل تشابهاً كثيراً وليس كبيراً على سويد أن يقبس من امرىء القيس فاننا لا نكاد نجد شاعراً لم يكن عالة على امرىء القيس في معانيه ، فاذا قال امرؤ القيس :

وأيقن ان لاقينه أن يومه
بذي الرمث ان ماوتنه يوم انفس

الفينا سويد يقول .

دانيات ما تلبسن به

واثقات بدماء ان رجع

ومع ان متطلبات الاخذ أن يزيد الآخذ عمن أخذ عنه في المعنى او في الاسلوب ، فان هذا الواجب لم يؤده سويدفبيت امرىء القيس ادق في المعنى ، فقد حدد المكان الذي يكون فيه التحادث ، وهو اجمل في الاسلوب ، واذا قال امرؤ القيس :

فبات على خـــد احم ومنكب

ومنجعته مثل الاسير المكردس

حاول سويد أن يتابعه ،فقال دون ان يبلغ تصوير امرىء القيس :

كف خداه على ديباجة

وعلى المتنين لون قد سطع

فبيت امرىء القيس فيه وصف وفيـه صورة :

الوصف في الشطر الاول والصورة في الشطر الاخير ، اما بيت سويد فليس فيه غير الوصف .

وقد وصف امرؤ القيس الكلاب ، وهي عماد الصورة ، ولكن سويدا مر عليها عدوا ؛ كانه خشي ان تريث ليصفهاان تلحقه ، « وادركنه يأخذن بالساق والنسا » او يشبرقنه « كما

شبرق الولدان ثوب المقدس » وتصوير امرىء القيس الهدوء والسكون بأنه كهدوء الرجل المعرس يرسل لنا شعاعا عما كانت عليه بيوت المعرسين بعد أن ينفض السامرون .

وقال في وصف حرب ناشبة بين عقاب وذئب قال : وقفت العقاب على ارم فرأت الذئب وكان بينهما قمم الجبال والربا والنجاد ، فهرولت اليه تهوي « يحثها من هوى اللوح تصويب » وهي اول الصور التي رسمها امرؤ القيس في هذه الابيات .

انقضت عليه كما تسقط الدلو المفعمة بالماء فقد انبتت عراها وخانها وذمها وتكريبها ، وهذه صورة أخرى ، واجمل من هاتين الصورتين تشبيهها بالبرق والريح ، وحقا ان مرآتاهما عجب وبلوغ هذه الصورة وتكوينها في كلمتين أغرب واعجب ، ووصف المعركة ، وان العقاب قد انشبت في الذئب مخالبها وانه ينسل من تحتها منقوب الجنب لائذا بالصخر ، وصف بلغ القمة في تصوير الحقيقة ، وصدق الوصف .

انك لتجد في هذه الابيات صوراً خلابة متسقة ، وحياة دفاقة ، واي صورة تطفح بالحياة اوضح من هذه :

فادركته ، فنالته مخالبهـــا

فانسل من تحتها ، والدف مثقوب

يلوذ بالصخر منها بعد ما فترت

منها ومنه على الصخر الشآبيب

ادركته ، تصور عدوهما وملاحقتها اياه ، فنالته مخالبها ، تصور قبضها عليه وانشاب مخالبهـــا فيه ، فانسل من تحتها ، تصور محاولته الافلات من مخالبهـــا حتى استطاعه ، والدف منقوب تصور الحال التي افلت عليهـــا ، يلوذ بالصخر ، تصور اختباءه بين الصخور ، بعد فتورهما ، وخمود تدافعهما .

اما جمال الاسلوب فيبدو في اكثر الابيات بل في جميعها ، فمن الجمال الفتان قوله :

صبت عليه ، ولم تنصب من امم

ان الشقاء على الاشقين مصبوب

يعجبك دون شك هـــذا الطباق السلبي ، كما يعجبك ذلك الاحتراس في قوله من امم . اما الحكمة فهي من اخلد الحكم «ان الشقاء على الاشقين مصبوب» واجمل ما فيها كلمة مصبوب لأنها تومي باندفاع الشقاء اليه ، وسقوط البلاء عليه ، ومن جمال الاسلوب قوله :

كالبرق والريح مرآتاهما عجب

ما في اجتهاد على الاصرار تغبيب

وبعد فالابيات جميلة من جميع النواحي ، وكلما زدتها تأملا زدت شعوراً بجمالها .

وكذلك وصف شاعرنا الحرب وسوء عواقبها بعد ان مارسها اعواماً وعرف حقيقتها ، فهي تغري وتغوي ؛ تغري بالنصر وتغوي بالظفر والغنيمة ، تبــدو في زينة فاتنة ، وصورة ساحرة ، ولكنها ما تلبث ان تظهر على حقيقتها ؛ تنــال من الغالب المغلوب ، وتأخذ من الطالب والمطلوب ، فهي كالداهيــة العجوز توقع في الشباك بعد ان تنصب الاشراك .

والجميل في هذه الابيات أن امرىء القيس استمد صوره من المرأة شابـة وعجوزا ، والمرأة هي أول من اثار الشرور ، وحمل الاوزار ، وما أشبه قول امرىء القيس بقول سليمان عليه السلام : الشر حلو اوله ، مر آخره .

انتهى

اسئله

س ١ – تحدث بايجاز عن امرىء القيس ونشأته .

س ٢ – تحدث عن آثاره وديوانه .

س ٣ – قارن بين وصف الاطلال عند امرىء القيس وبينه عند النابغة .

س ٤ – اشرح وحلل وانقد الابيات التي يصف فيها الليل.

س ٥ – اشرح وحلل وانقد الابيات التي يصف فيها الفرس.

س ٦ – اشرح وحلل وانقد الابيات التي يصف فيها السحاب والبرق والغيث .

س ٧ – اشرح وحلل وانقد الابيات التي يصف فيها الحمار الوحشي .

س ٨ – اشرح وحلل وانقد الابيات التي يصف فيها الحرب الناشبة بين عقاب وذئب .

س ٩ – اشرح وحلل وانقد الابيات التي يصف فيها الحرب وسوء عواقبها .

فهرست الكتاب

صفحة

مطابع دار الهلال
بيروت - شارع بشاره الخوري - بناية نفاع
تلفون ٢٥٤٨٧